العصر العثماني

من فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٣
إلى مجيء نابوليون إليها سنة ١٢١٣هـ

فذلكة تاريخية

نشأت الدولة العثمانية بآسيا الصغرى في أثناء العصر المغولي، وبعد أن رسخت قدم العثمانيين فيها قطعوا البحر إلى أوربا ففتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، وأوغلوا في ممالكها وإماراتها حتى حاصروا فينا، ونشروا لواء الإسلام على شبه جزيرة البلقان في شرقي أوربا، لكنه تقلص نحو ذلك الزمن عن غربيها (الأندلس)؛ لأن الإسبانيين ما زالوا يطاردون المسلمين العرب فيها ويفتحون البلد بعد البلد حتى أخرجوهم منها كلها سنة ٨٩٧هـ، فكأن شبه جزيرة البلقان قامت تحت رايتهم مقام شبه جزيرة الإسبان.

وبعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية حولوا أعنة خيولهم نحو المشرق في المملكة الإسلامية على أثر ظهور الدولة الصفوية الشيعية التي أسسها إسماعيل شاه سنة ٩٠٧هـ في بلاد فارس، وجعل تبريز عاصمة ملكه، ثم استولى على العراق وخراسان من أيدي التيموريين، فامتدت سلطته من نهر جيحون (اكسوس) شرقًا إلى خليج فارس ونهر الفرات غربًا، فخافه العثمانيون وهم سنيون وزعيمهم يومئذ السلطان سليم الثاني الفاتح العظيم، فتنبهت الضغائن بينهما والعثمانيون حماة السنة والصفويون حماة الشيعة، أو هي حجة ينتحلها الفاتحون، وسبب الحرب إنما هو الطمع بالاستيلاء، والدين براء من ذلك.

كان إسماعيل شاه قد أغضب السلطان سليمًا في أثناء عصيان أخيه أحمد؛ لأنه حماه منه فخاف إسماعيل عاقبة ذلك فبعث إلى مصر يطلب محالفتها على العثمانيين وهي في سيطرة المماليك الأتراك، فغضب السلطان سليم وعزم على فتح البلدين جميعًا، فحمل على إيران حتى فتح تبريز واستولى على عرش صاحبها وهرب إسماعيل شاه، ثم اضطر السلطان سليم إلى إخلاء تبريز لقلة المؤن اللازمة لجنده، وطارد عدوه حينًا فتعب جنده من الأسفار فتوقف ريثما استراح، وعمد إلى فتح مصر والشام انتقامًا من سلطانها الغوري؛ لأنه حالف عدوه عليه، وكانت مصر في غاية الاضطراب والفساد وقد شاخت دولتها وآذنت شمسها بالزوال لتقوم تلك الدولة الشابة مقامها، ففتح السلطان سليم الشام ومصر فأصبحتا ولاية عثمانية سنة ٩٢٣ وبها يبدأ العصر العثماني الذي نحن في صدده.

لما فتح العثمانيون مصر أصبح الشرق الإسلامي يتنازعه ثلاث أمم: الفرس والمغول والأتراك.

فالفرس استولوا على أواسط العالم الإسلامي، نعني إيران وخراسان بين نهري جيحون ودجلة تحت راية الدولة الصفوية وهم فرس، وإن ادعوا النسب القرشي، وامتد سلطان المغول شرقًا من أفغانستان إلى أقصى الهند، أما الأتراك وهم العثمانيون فنشروا أعلامهم وراء آسيا الصغرى على مصر والشام والعراق وتونس والجزائر، وكانت هذه البلاد قبل ذلك يحكمها المماليك بمصر والشام والفرس في العراق والحفصية في تونس وطرابلس الغرب والمرينية والوطاسية في الجزائر، فإذا أضفت إليها مراكش في أقصى الغرب وجزيرة العرب وسائر العراق وما يلي مصر جنوبًا في أواسط إفريقيا وغربها تألف من ذلك كله بقعة أهلها يتكلمون العربية، يحدها دجلة وخليج العجم من الشرق والمحيط الأتلانتيكي من الغرب وآسيا الصغرى والبحر المتوسط من الشمال وخط الاستواء والبحر العربي من الجنوب، وهو العالم العربي ومعظمه في سيادة الدولة العثمانية.

فالعثمانيون أتراك خلفوا السلاطين المماليك في مصر والشام، وهم أتراك أو شراكسة وكلاهما سنيون، لكن العالم العربي كان أعز جانبًا والآداب العربية أرسخ قدمًا في عهد المماليك لأسباب كثيرة أهمها:

(١) أن السلاطين المماليك كانت عاصمتهم مصر وهي قلب العالم العربي.

(٢) أن المماليك جعلوا اللغة العربية لغة الحكومة وبها كانوا يتكاتبون ويتخاطبون ويصدرون المناشير والأوامر، كما فعل سائر من تولى هذه البلاد من الدول الإسلامية

غير العربية، وكان المماليك يأخذون بناصر العلماء والأدباء يستقدمون القراء والمحدثين من الأطراف، ويقترحون تأليف الكتب التاريخية والاجتماعية والحربية والسياسية كما رأيت، أما العثمانيون فكانوا يقربون العلماء وينشطونهم أحيانًا لكنهم احتفظوا بلسانهم التركي للمخاطبات والمخابرات وسائر المعاملات.

(٣) أن بُعد العاصمة (الأستانة) عن هذه البلاد وضعف وسائل النقل في تلك الأيام أخاف السلاطين على ولاياتهم العربية، فجعلوا أساس الإدارة فيها التفريق بين رجال الحكومة، بحيث لا يخشى اجتماعهم على خلع الطاعة أو الاستقلال، فآل ذلك طبعًا إلى فساد الأحكام وزيادة المظالم، وأصبح هم الحكام سلب الأموال والتنازع على الاستبداد في الرعية المسكينة، وبات الرجل من هؤلاء إذا نهض من فراشه وخرج من بيته لا يدري ما يلقاه من أنواع المظالم أو ضروب الإهانة، إذا كان في يده مال لا يأمن بقاءه إلى المساء وإذا كانت له دابة فهي عرضة للسخرة، فضلًا عن تحول التجارة من مصر إلى سواها في ذلك العهد، وناهيك بالضرائب المتوالية التي لا يسأل ضاربها ولا ينجو أحد من دفعها راضيًا أو غاضبًا، وما زال ذلك حالها حتى طمع بها الفرنساويون وفتحوها سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وبها ينقضي العصر العثماني من تاريخ آداب اللغة الذي نحن في صدده، ثم صارت مصر إلى محمد علي مؤسس العائلة المحمدية العلوية، فدخلت في عصر جديد هو «النهضة الأخيرة» وسنتكلم عنها في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

حال آداب اللغة

فالأمة التي هذا حالها من الضنك والشدة كيف يرجى رواج العلم والأدب فيها؟ إن التغيير السياسي والاجتماعي في العصر المغولي لم يظهر تأثيره في الآداب العربية إلا في أواخره، أما في أوائله فظهرت ثمار نضج العلم في الأعصر السابقة، وقد رأيت أن الآداب العربية انحصر معظمها في مصر والشام وما يليهما من العالم العربي مع ظهور بعض الشعراء والأدباء في بلاد فارس وما وراءها وفي الأندلس، أما في العصر العثماني فتمكن فيه الذل من النفوس، وفسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح فلم ينبغ شاعر يستحق الذكر خارج البقعة العربية.

ومع ذلك فاللغة العربية ما زالت هي لغة الدين في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه لا يستغني عالم مسلم عن معرفتها والمطالعة فيها، حتى الإفرنج في أوائل

نهضتهم فإن علماءهم الطبيعيين من الأطباء والفلاسفة وسائر من أراد التوسع في العلم لم يكن يستغني عن اللغة العربية أو ما نقل من آدابها إلى اللاتينية وغيرها. وسنفرد فصلًا خاصًّا لاشتغال الإفرنج بآداب اللغة العربية وما نقلوه منها إلى لسانهم عند كلامنا عن النهضة الأخيرة.

أما الآداب العربية على الإجمال فأصبحت في أحط أدوارها وندر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبطين فيها، وأكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعاليق وشروح الشروح ونحوها، ويصح أن يسمى هذا العصر «عصر الشروح والحواشي» كما سمينا العصر المغولي عصر الموسوعات والمجاميع، وشاع في هذا العصر التصوف وتعددت الطرق الصوفية، وكثر التأليف بلا نظام مثل الكشكول، وانحط أسلوب الإنشاء حتى أوشك أن يكون عاميًّا كما في قصص بني هلال ونحوها مما وصل إلينا من القصص الموضوعة في عصور الانحطاط، بعضها وضع في أواخر العصر المغولي والبعض الآخر في العصر العثماني.

الآداب الاجتماعية

وسوء الإدارة أفسد على الناس نياتهم فتشوشت أفكارهم، وانصرفوا إلى ما يشغلهم عن تلك المظالم من المخدرات والمسكرات وشاع استخدام الأفيون والحشيش، واستعان الظالمون في حفظ سيادتهم بالتفريق بين الطوائف فتمكنت البغضاء بينها، واشتدت وطأة الظالمين على اليهود والنصارى خصوصًا، وكلفوهم عذابًا ومشقة في بناء معابدهم ابتزازًا للأموال، وصاروا إذا ورد ذكر أحدهم في بعض الكتب شفعوا اسمه بما يستغربه أدباء هذا العصر إذا وقفوا عليه. وقد نشرنا مثالًا منه في تاريخ التمدن الإسلامي (صفحة ١٢٧ ج٤).

وتوالت الأوبئة الوافدة لا سيما الطاعون وكان يحرف الأحياء جرفًا، فاستولى على الناس الخوف من الحياة وتمكنت الأوهام من عقولهم وزاد اعتقادهم في الخرافات وتمسكوا بالأحلام فكثر المفسرون لها وشاع الاعتقاد بأن الرؤية ١/٤٦ من النبوة، وكثر اعتقاد الناس بالسحر على أنواعه فكثر مدعوه وتعدد المؤلفون فيه.

ومن عواقب المظالم انحطاط الآداب العامة بفساد الأخلاق، فشاعت قلة الحياء وظهرت آثار ذلك في آداب اللغة فزاد الكُتاب جرأة على التعابير البذيئة حتى في كتب التاريخ، كما فعل الإسحاقي في كتابه أخبار الأول، وظهرت كتب خاصة بالخلاعة

والفحشاء كرجوع الشيخ إلى صباه وعشرة النساء وغيرهما، وكثر السفه في المجون في الكتب الأخرى وفي الشعر وصار للأحماض باب خاص، ظهر ذلك في العصر الماضي واتسع في هذا العصر، وكسدت بضاعة الأدب على الإجمال، فوصف ذلك صاحب العقد المنظوم في أفاضل الروم المتوفى سنة ٩٩٢ بقوله: «فأنا قد انتهيت إلى زمان يرون (أهله) الأدب عيبًا ويعدون التضلع من الفنون ذنبًا وإلى الله الحنان المشتكى من هذا الزمان»، وآل هذا الفساد إلى ظهور دعاة الإصلاح برد الفعل فظهرت طائفة الوهابية في جزيرة العرب وسيأتي ذكرها.

وكان أكثر ظهور الأدباء في العصر الماضي بمصر والشام وظهر بعضهم في المملكة العثمانية، وقد تكاثر ظهورهم هناك في هذا العصر.